كتاب صليب المسيح

قراءة القس جان إميل

مقدمة

يُعدُّ كتاب (صـليب المسـيح) لكاتبه الدكتور القس جون سـتوت من أكثر المراجع العالميّة المعاصرة تميزًا والتي تختص بجوهر إيماننا المسيحيّ، وقد نُشر بالإنجليزية عام 1986 من خلال دار (Inter-Varsity Press) للنشـــر. وظهر بلغتنا العربية، إذ نشـــرته دار الثقافة عام 1995 وترجمه نجيب جرجور، ليصـــير المرجع الأهم في مكتبتنا العربية في هذا الشأن. يقع الكتاب في أكثر من 400 صفحة.

يتكون هذا الكتاب من تمهيد وأربعة أجزاء رئيســـية تحوي داخلها 13 فصـــلًا وخاتمة. ليس هذا فقط بل يتميز هذا الكتاب بدليلٍ دراســـيٍ في نهايته ليُعين الكنيســـة على استخدامه من خلال المجموعات الصغيرة في 14 جلسة.

يدعونا الدكتور ســـتوت في تمهيده لهذا الكتاب أن نقترب إلى الصـــليب اقتراب المتورطين في القضـــية، لأنَّ "خطايانا وضـــعت المســـيح هناك"، فلذلك ينبغي "أن نقف أمامه برأسٍ منكسٍ وروحٍ منكســـرةٍ"، ولهذا أدعو القارئ العزيز لقراءة هذا الكتاب القيم، فهذا الكتاب لا يصـحُّ أن يظل حبيسًـا لمكتباتنا الخشـبيّة، ولا أن يُدرس دون أن يُفجِّر فينا روح التواضع والخشوع. *وأقدِّم الآن للقارئ عرضًا سريعًا لما جاء فيه*:

الجزء الأول: اقتراب من الصليب

1- مركزية الصليب

يرى ستوت أنَّ الصليب احتل مركز تفكير الكنيسة الأولى، إذ إنها مع بداية القرن الثاني لم تتخذ المذود، المنشـــفة، أو حتّى الحجر المدحرج رمزًا لها رغم دلالة كل هذه الرموز عن حقائق مجيدة خاصة بالمسيح، بل رأت في الصليب وموت المسيح فقط رمزًا ومركزًا لها، رغم ســـخرية الثقافات المعادية لها من يهود ووثنيين من حدث الصليب.

يُرجع الكاتب هذه المكانة الخاصـــة للصـــليب عند الكنيســـة الأولى لمركزية الصليب لدى المسيح نفسه الذي تحدث منذ بداية خدمته عن "ساعته" التي كانت لم تأتِ بعد ولكنه أكد أنَّها ســـتأتي. وبالرغم من إصـــرار المســـيح مرات عديدة على

الاحتفاظ بكون مسيانيته سرًا، إلَّا أنَّه أعلن عن ضرورة تألمه وموته علانية وأنَّه لابد أن يُسلَّم ويتألم ويموت ثم يقوم في اليوم الثالث.

2- لماذا مات المسيح؟

تعددت الأسباب ولكن الموت واحد، هذه هي الحقيقة التي يُظهِرُها جون ستوت إذ يعتبر أنَّ المسيح مات شهيدًا جرّاء محاكمة غير عادلة تجمَّع فيها جبن بيلاطس وخوفه على زوال منصبه مع كراهية قادة اليهود وغيرتهم من المسيح بالإضافة إلى طمع وجشع يهوذا الإسخريوطي. هذه الخطايا كانت فيهم وهي بالتأكيد موجودة فينا أيضًا، وبذلك نكون نحن وخطايانا السبب في موت المسيح.

لكنَّ الكاتب يُحذِّر أيضًا من الاكتفاء بهذه الأسباب، فالمسيح لم يكن مجرد شهيدٍ بل كان فاديًا، فمحبته لنا هي التي جعلته يذهب طوعًا إلى الصليب. فعند الصليب نجد خطايانا، وعند الصليب نجد محبته أيضًا.

3- النظر إلى ما تحت السطح

يتناول ستوت ساعات اليوم الأخير في حياة الرب يسوع قبل الصليب ويقف أمام ثلاثة مواقف هي: العشاء الأخير، الكرب في جثسيماني، وصرخة الكرب على الصليب. ومن خلال هذا التناول العميق والمُعزِّي (الذي سيختبره القارئ بنفسه عند قراءة هذا الفصل) يَخلُص بأنَّ الصليب كان فعلًا خالصًا من المحبة؛ محبة اتجهت للبشر داعيةً إياهم أن يشتركوا في أكل جسده وشرب دمه أي أنْ يأخذوا بركات موته لهم شخصيًا، ومحبة كانت طائعة للآب أنْ تشرب كأس الغضب الإلهي والترك الموحش جرّاء حمل خطايا العالم كله على نفسه.

الجزء الثاني: قلب الصليب

4- مشكلة الغفران

يؤكد الكاتب أنَّ الغفران هو أبسط الأمور لمَن ينظر إلى الأمور بسطحيّة وهو أكثر الأمور غموضًا لمَن ينظر بعمق. فلا نستطيع أنْ نفهم فاعلية صليب المسيح في غفران الخطايا دون أنْ نحصل على الإدراك العميق للحقائق الأربعة التي يقدمها هذا الفصل بشرحٍ مستفيض وهي: جسامة الخطية، مسؤولية الإنسان الأخلاقية، شعور الإنسان الحقيقي بالذنب حيال الخطية، قداسة الله وغضبه.

5- التكفير عن الخطية

استعرض ستوت حقيقة التكفير والإرضاء في كلمة الله، وكيف فهمت الكنيسة عبر العصور هذا المفهوم، لكنه استبعد مفهوم الآباء عن إرضاء الشيطان لأنَّ ليس ثمة حقوق للشيطان عند الله أو صفقة بين الله والشيطان.

وبالرغم من موافقته لحقيقة أنَّ الصليب كان إرضاءً للناموس، عدالة الله، كرامة الله، أو نظامه الأخلاقي، لكنَّه حذَّر من أنْ نعتبر هذه جميعها أشياءً منفصلةً عن الله ونظن أنَّ الله بات مضطرًا بأن يُرضي صفاته. بل لأنَّ الله متسقًا في صفاته ولأنَّه لا يقدر أنْ يُنكر نفسه، نرى في محبته غاية القداسة وفي قداسته غاية المحبة، وهذا ما كان في الصليب.

6- إبدال الله الذاتي

يطرح الكاتب نماذج عديدة (كالذبائح والفصح وتيس عزازيل وعبد الرب المتألم في إشعياء 53) ليؤكد من خلالها مشروعية الاعتقاد في الكفارة البدليّة.

ينفي ستوت من خلال هذا الفصل كل الأفكار المشوهة عن الكفارة؛ فالمسيح لم يكن ضحية إبدال الله الآب لنا به لحسابنا، والمسيح لم يكن شفيعًا لحسابنا أمام إله ممتنع رافضًا للمصالحة. كما أنَّه لا يصح القول بأنَّ الله الآب مات منكرين فهمنا الثالوثيّ لله غير مميزين الأقانيم، وفي نفس الوقت لا نستطيع أن ننكر أنَّ الله في المسيح مات عنّا. بل نخلص إلى أن الله الأزلي نفسه بذل نفسه في ابنه ليصير إنسانًا وليحمل على عاتقه كإنسان هذه الآلام البشرية التي انتهت بالموت، الموت بدلًا منّا.

الجزء الثالث: إنجاز الصليب

7- خلاص الخطاة

يُقدِّم الكاتب 4 صور توضح أبعاد خلاص المسيح للبشر، وهي:

- الكفارة: إذ تمّ في الصليب استرضاء غضب الله واستيائه من خطية الإنسان، كما كان يُرجى من الذبائح التي تُقدَّم بالهيكل.
- الفداء: بمعنى أن المسيح اشترانا ودفع ديوننا محررًا إيانا من العبودية، كما كان حال الأسياد الذين يحررون العبيد في الأسواق في القديم.
- التبرير: إذ أن المسيح في الصليب دخل إلى ساحة المحكمة الإلهية حاملًا عليه دينونتنا التي نستحقها معطيًا إيانا بره.

- المصالحة: فكما فعل الأب مع ابنه الضال، نزع المسيح العداوة التي فصلت البشر عن أبيهم السماوي، كما تحدث المصالحة بين أفراد البيت.

8- إعلان الله

أعلن الله الآب، وكذلك الابن عن مجده في الصليب من خلال إعلان صفاته. لم يكن صليب المسيح فقط لتبرير الخطاة لكنَّه كان ليعلن عن بر (عدالة) الله، إذ إنَّ الله لم يقتص من الخطايا عبر التاريخ فور حدوثها لكنَّه تهمل، ولم يكن تمهله تصالحًا مع الخطية لأنه استوفى عدالته في الصليب. كذلك أعلن الله عن محبته في حمل دينونة البشر عليه التي لم يكن العالم ليعرفها بدون الصليب، كما أنَّه أعلن عن حكمته التي جمعت العدالة والمحبة معًا، وقوته في تخليص الذين يؤمنون. تجلى مجد الله في الصليب بإظهار كل صفاته مجتمعة.

9- الانتصار على الشر

يختتم ستوت إنجاز الصليب بالانتصار على قوى الشر، إذ يقتبس من مايكل جرين ست مراحل للنصرة على الشر:

- نبوة العهد القديم بأنَّ نسل المرأة سيسحق رأس الحية.
- انتهار المسيح وطرده للأرواح الشريرة أثناء خدمته العلنية.
- الصليب؛ ويمثل النصرة الفعلية والنهائية على إبليس الذي جرده المسيح وشهَّر به.
- القيامة؛ وهي تعلن عن النصرة التي تمت بالفعل في الصليب.
- إرسالية الكنيسة؛ التي قامت بعد قيامة المسيح لتنتصر بنقل المُخلَّصين من ملكوت الظلمة إلى ملكوت المسيح.
- مجيء المسيح ثانيةً؛ حيث يُلقى إبليس وجنوده في بحيرة النار.

فالصليب إذًا هو قمة وذروة النصرة، إذ فيه انتصر المسيح للإنسان على أعدائه (الخطية، العالم، الجسد، إبليس).

الجزء الرابع: العيش تحت الصليب

10- جماعة الاحتفال

يرى ستوت الكنيسة بأنَّها جماعة تكونت بفعل الصليب، فهي جماعة المفديين وبؤرتها الصليب. ويدعوها كجماعة إفخارستية إذ اجتمعت لتحتفل بعمل فاديها هنا وهكذا طوال الأبدية حيث تلتف لتُكرِم الخروف المذبوح. مؤكدًا أنَّ ذبيحة الشكر التي نقدمها لا تقوم بأي عمل كفاريّ لأجلنا بل هي فقط تمتعنا بمنافع وامتيازات ذبيحة المسيح على الصليب وتغذينا عليه.

11- فهم الذات وبذل الذات

إنَّ الصليب خلق توجهًا آخر للحياة بدلًا من توكيد الذات والرغبة المحمومة للتسلط والكبرياء، فصبغة المسيح على الصليب هي التي تحدت أبني الرعد الذي يرغبون في الجلوس عن اليمين واليسار، لينطلقوا في خدمة أمينة يقدمون ذواتهم في خدمة السيد.

12- محبتنا لأعدائنا

يعرض الكاتب أربعة مواقف واجبة تجاه الشر هي: أن نبغضه، ألَّا نقابله بالمثل، أن نغلبه، وأن يُعاقب. ويرى أنَّ الله قد عهد للكنيسة بغلبة الشر من خلال الكرازة بالإنجيل، في حين أنَّه عهد للدولة بمعاقبة الشر، وكلاهما يظهر محبة الله وعدله اللذين ظهرا في الصليب.

13- الألم والمجد

يُنهي جون ستوت مرجعه القيّم بالمجد الذي يعدنا به الصليب رغم الألم، وكيف ينشأ صليب المسيح فينا الاحتمال الصابر والقداسة الناضجة والخدمة المتألمة. هذا، وأنَّه في ضوء الصليب يتفعل الإيمان والرجاء والمحبة في حياة المؤمنين.

<u>أخيرًا: ما يُميّز هذا الكتاب؟</u>

1- لا تجد الكاتب بالرغم من توسع الطرح الذي يقدمه عن قضية الصليب يناقض نفسه في أي جزء من أجزاء الكتاب، ففكره متماسك وواسع إلى درجة تُشعر القارئ بغنى وعمق كلمة الله ومحبة الله.
2- اعتماده الكتابيّ في تناول قضية الصليب وتقديمها في نظم لاهوتي متين دون التوسع والتشتت في نظريات الكفارة اللاهوتية العديدة التي ظهرت في تاريخ

المسـيحيّة، بيد أنَّه مُلمٌ بها جميعًا محاولًا أن يُعالج الكثير مما أثارته هذه النظريات عبر الزمن دون أن يبتعد بدراسته عن كلمة الله.

3- يُصـالح سـتوت بين نظرية أنسـلم الذي ركَّزَ على فعل الصـليب في التكفير عن الخطية لإرضـاء الله، ونظرية أبيلارد بأنَّ الصـليب كان ليلهمنا ويجددنا أخلاقيًا، وكذلك نظرية أولن حيث انتصر الله على قوى الشر كالخطية والموت والشيطان، مُقدِّمًا نسق لاهوتيّ متماسك إذ يحسب كل منها موجه نحو شخص مختلف؛ أنسلم نحو الله، وأبيلارد نحونا، وأولن نحو قوى الشر ويخلص بالقول إننا نحتاج للصليب لأننا مذنبون، لا مبالون، وعبيد.

4- إمعانه في إشـراكنا في قضـية الصـليب، من جهة إصـراره على إعلان تورطنا جميعًا في الخطية وجسـامتها وكونها سـببًا قاد المسـيح للصـليب، علاوةً على أنَّه يدعونا بشغف لاستقبال بركات عمل المسيح الكفاريّ في حياتنا.

5- يقنعنا الكاتب فعليًا بالحقيقة التي تقول بإنَّ اللاهوت كله متشابك إلى أقصى درجة، فمن حديثه عن الصـليب رأينا الثالوث والكريسـتولوجي ورأينا تعليمًا عن الشـر والألم وكذلك تعليمًا سـلوكيًا عن كيف يعيش المؤمنون دون أن نشـعر بإقحام هذه الموضوعات على الحديث الأساسي.

في النهاية، أقول إنَّني اجتزت في خبرة قيّمة جدًا بسبب محاولة عرض هذا الكتاب، ولا أعرف كيف كنتُ أعظ عن الصـليب وأتأمل فيه بدون هذا التأصـيل الرصـين. لذا أُشـجع كل الخُدَّام أن يدرسـوا هذا المرجع القيم، بل وأشـجع كل المؤمنين، لأنَّ هذا الكتاب يولِّد في الأعماق مشـاعر الامتنان والعرفان للرب، ويُنشئ في العقل قاعدة فكريّة متينة تجعلنا نفتخر بإلهنا الحيّ.